

نسبه ومولده

الرافعي سوري الأصل ، مصري المولد ، إسلامي الوطن : فأمرته من (طرابلس الشام) يعيش على أرضها إلى اليوم أهله وبنو عمه ؛ ولكن مولده بمصر ، وعلى ضفاف النيل عاش أبوه وجده والأكثر من بني عمه وختولته منذ أكثر من قرن ؛ وهو في وطنيته (مسلم) : لا يعرف له أرضاً من أرض الإسلام ينتسب إليها حين يقول : وطني . فالكل عنده وطنه ووطن كل مسلم ؛ فأنت لم تكن تسمعه يقول : « الوطنية المصرية ... » أو « الوطنية السورية ... » أو « الوطنية العراقية ... » إلا كما تسمع أحداً يقول : هذه داري من هذا البلد ، أو هذه مدينتي من هذا الوطن الكبير الذي يضم أشتاتاً من البلاد والمدائن . وإنما الوطن فيما كان يراه لنفسه ولكل مسلم ، هو كل أرض يخفق فيها لواء الإسلام والعربية كما وما مصر والعراق والشام والمغرب وغيرها إلا أجزاء صغيرة من هذا الوطن الإسلامي الأكبر ، ينتظمها جميعاً كما تنتظم الدولة شتى الأقاليم وعديداً من البلاد

وكثيراً ما كانت تثار الخصومات بين الرافعي وبعض الأدباء في مصر ، فيما يجدون مضمراً يناولون به منه عند القراء إلا أن يهتموه في وطنيته ، أعني مصريته ؛ وكان الرافعي يستمع إلى ما يقولون عنه في ذلك مغيظاً حيناً وساخراً حيناً آخر ، ثم يقول : أفترام يهتمونني في مصريتي لأنني في زعمهم غير مصري وفي مصر مولدي وفي أرضها رفات أبي وأمي وجدتي ، أم كل عيب عندكم في الوطنية أنني صريح النسب ؟ ... وإلا فمن أبو فلان وفلان ؟ ومن أين مقدمه ؟ ومتى استوطن هذا الوطن ... ؟

ورأس أسرة الرافعي هو المرحوم الشيخ عبد القادر الرافعي الكبير المتوفى سنة ١٢٣٠ هـ بطرابلس الشام ، ويتصل نسبه بعمربن عبد الله بن عمر بن الخطاب أمير المؤمنين رضي الله عنه ، في نسب طويل من أهل الفضل والكرامة والفقہ في الدين .

وأول وافد إلى مصر من هذه الأسرة هو المرحوم الشيخ محمد الطاهر الرافعي ، قدمها في سنة ١٢٤٣ هـ (قريب من سنة ١٨٢٧ م) ليتولى قضاء الحنفية في مصر بأمر من السلطان ؛ وأحسب أن مقدمه كان أول التاريخ لذهب الامام أبي حنيفة في القضاء الشرعي بمصر . ولم يعقب الشيخ محمد الطاهر غير فتاة و غلام ، انتهى بموتهما نسبه فليس في مصر أحد من ولده ؛ ولكنه كان كرائد الطريق لهذه الأسرة^(١) ، فتوافد إخوته وأبناء عمومته إلى مصر يتولون القضاء ويعلمون مذهب أبي حنيفة ، حتى آل الأمر من بعد أن اجتمع منهم في وقت ما أربعون قاضياً في مختلف المحاكم المصرية ، وأوشكت وظائف القضاء والفتوى أن تكون مقصورة على آل الرافعي ؛ وقد تنبه اللورد كرومر إلى هذه الملاحظة فأثبتها في بعض تقاريره إلى وزارة الخارجية الإنجليزية .

وقد تخرج في درس الشيخ محمد الطاهر وأخيه الشيخ عبد القادر الرافعي ، أكثر علماء الحنفية الذين نشروا المذهب في مصر . ومن تلاميذها الأديين المرحومان الشيخ محمد البحراوي الكبير والشيخ محمد بنحيت مفتي الدولة السابق . ولما توفي المرحوم الإمام الشيخ محمد عبده ، كان شيخ الحنفية في مصر يومئذ هو المرحوم الشيخ عبد القادر الرافعي ، فدعا الخديو عباس إلى تولى وظيفة الإفتاء ،

(١) العجيب أن يكون أول قادم إلى مصر من هذه الأسرة ليس في مصر أحد من ولده ، ومع ذلك تستطيع أن تحصي من آل الرافعي في مصر الآن ما يزيد على ستمائة . وأسرة الرافعي كثيرة الولد ، فإنا منهم إله ثمانية أولاد أو عشرة أو اثنا عشر أو أكثر من ذلك ؛ وحسبك أن تعلم أن أولاد وأحفاد الشيخ عبد الرازق الرافعي (والد المترجم) يبلغون الآن واحداً وسبعين ولها و بنتا ، وقد مات المترجم وعمره سبع وخمسون سنة ولم يتزوج إلا واحدة ، ولده منها أحد عشر ولها فتاة ، اقترط منهم واحدة في سنتها الأولى وخلف عشرة

وكان رجلاً زاهداً ورعاً فيه تخرج وخشية ، فلم يجد في نفسه هوى إلى قبول هذا المنصب ، تخرجاً من فتنه الحكم وغلبة الهوى في شأن يتصل بحقوق العباد ، وفيه الفصل في الخصومات بين الناس . . . فلما بلغت دعوة الخديو ذهب إلى لقائه وفي نفسه هم ، وهو يدعو الله ألا يثول إليه هذا الأمر ضناً بدينه ومصروفه . . . وتمت مراسم التولية وتلقى الأمر من صاحب العرش بقبول وظيفة (مفتي الدولة) ثم نزل إلى عمرته فركبها عائداً إلى داره وهو يتمم ويدعو ؛ فلما بلغ الدار نزل الخوذي ليفتح له العربة ويساعده على النزول ، فاذا هو قد فارق الحياة قبل أن يجلس مجلس الحكم مرة واحدة ليقضى في شؤون العباد . . . واستجاب الله دعاءه . . . !

أبو الأستاذ الرافعي هو المرحوم الشيخ عبد الرازق الرافعي ، كان رئيساً للمحاكم الشرعية في كثير من الأقاليم ، وهو واحد من أحد عشر أخاً اشتغلوا كلهم بالقضاء من ولد المرحوم الشيخ سعيد الرافعي . وكان آخر أمر الشيخ عبد الرازق رئيساً لمحكمة طنطا الشرعية ؛ وفي طنطا كانت إقامته إلى آخر أيامه ، وفيها مات ودفن ، وفيها أقام المترجم وإخوته من بعد أبيهم في بيته ، فآخذوا طنطا وطناً ومقاماً ؛ لا يعرفون لهم وطناً غيرها ولا يبغون عنها حولاً . ولقد حاولت وزارة الحقانية أكثر من مرة أن تنقله إلى غير طنطا ، فكان يسمى سعيه لإلغاء هذا النقل ، حتى لا يفارق البلد الذي فيه رفات أبيه وأمه ، وفيه مسجد السيد البدوي^(١) وكان الشيخ عبد الرازق رجلاً ورعاً له صلابة في الدين وشدة في الحق ، ما برح يذكرهما معاصروه من شيوخ طنطا .

(١) كان للرافعي صلة روحية بالسيد البدوي ترتفع عن الجدل والناقصة ، وله فيه مداخ وتوسلات شعرية كثيرة ، وكان الرافعي إذا أم مسجد السيد البدوي للصلاة اتخذ مجلسه تحت (القبة) فلا يعمل الجلوس ساعات يقرأ ويدعو وعيناه مسبلتان ؛ فاذا فرغ من دعائه وتلاوته رفع رأسه ومسح يده على صدره ، ثم يمضي وما تزال شفثاه تتحركان بكلام . . . وكان بيت آل الرافعي القديم في طنطا قريباً من مسجد السيد البدوي ، في حارة سيدي سالم ، وهي حارة قديمة ضيقة ملتوية يقال إن السيد البدوي أوى إليها أول ما هبط إلى طنطا منذ ألف سنة وكانت إلى عهد قريب هي مجتم دور الأعيان والسروات من أحباب السيد البدوي واللائقين به

حدثني نسيب قال : « كنت غلاماً حدثاً ، وكان الشيخ عبد الرازق الرافعي من جيراننا وأحبابنا الأجلاء ، وكان يتخذ مجلس العصر أحياناً في متجر جاره وصديقه المرحوم حسن بدوي الفطاطري ، في شارع درب الأثر ، ودرب الأثر يومئذ هو شارع المدينة وفيه أكبر أسواقها التجارية ؛ ففي عصر يوم من رمضان ، كان الشيخ عبد الرازق يجلس مجلسه من متجر صديقه ، فمر به رجل ينفث الدخان من فمه وبين أصبعيه دخينة ، فما هو إلا أن رآه الشيخ عبد الرازق ، حتى اندفع إليه ، فانقض عليه ، فأمسك بثيابه ، فدعى الشرطي أن يسوقه إلى القسم لينال الحد على إفطاره في رمضان في شارع عام . وما أجدى رجاء الرجل ولا شفاة الشفاء ؛ فسيق الرجل إلى القسم في (زفة) من الصبيان ، ليتولى الشيخ حده بنفسه على إفطاره . وما كان القانون يأمر بذلك ، ولكن الشرطة ما كانوا ليخالفوا أمر قاضي المدينة ، وما كانوا يعرفون له عندهم إلا الطاعة والاحترام . »

وحوادث الشيخ عبد الرازق من مثل ذلك كثيرة يعرفها كثير !

واسم (الرافعي) معروف في تاريخ الفقه الإسلامي منذ قرون ، وأحسب أن هناك صلة ما بين أسرة الرافعي في طرابلس الشام وبين الإمام الرافعي المشهور صاحب الشافعي ؛ وقد سألت الرافعي مرة عن هذه الصلة ، فقال : « لا أدري ، ولكني سمعت من بعض أهلي أن أول من عرف منا بهذا الاسم شيخ من آباءي كان من أهل الفقه وله حظ من الاجتهاد والنظر في مسائله ، فلقبه أهل عصره بالرافعي تشبيهاً له بالإمام الكبير الشيخ محمود الرافعي صاحب الرأي المشهور عند الشافعية ، والله أعلم . »

والأستاذ الرافعي حنفي المذهب كسائر أسرته ، ولكنه درس مذهب الشافعي وكان يمتد به ويأخذ برأيه في كثير من مسائل العلم .

وأم الرافعي كآبيه سورية الأصل ، وكان أبوها الشيخ الطوخي تاجراً تسير قوافله بالتجارة بين مصر والشام ، وأصله من حلب ، وأحسب أن أسرة الطوخي ما تزال معروفة هناك ، على أنه كان اتخذ مصر وطناً له قبل أن يصل نسبه بأسرة

الرافعى ، وكانت إقامته فى (بهتىم) من قرى مديرة القليوبية ، وكان له فىها ضيعة ، وفىها ولد الأستاذ مصطفى صادق الرافعى فى يناير من سنة ١٨٨٠ م^(١) ، إذ آثرت أمه أن تكون ولادتها فى دار أبيها .

وكانت أم الرافعى تحبه وتؤثره ، وكان يطيعها ويبرها ؛ وقد ظل إلى أيامه الأخيرة إذا ذكرها تفرغرت عيناه كأنه فقدها بالأمس ، وكان دائماً يجب أن يسند إليها الفضل فيما آل إليه أمره ؛ وقد توفيت فى أسيوط ودفنت بها ، ثم نقلت إلى مدافن الأسرة بطنطا .

(١) لا نعرف للرافعى (شهادة ميلاد) تحدد يوم مولده بالضبط . وشهادة الميلاد التى علف خدمته فى وزارة الحفانية هى لأخيه المرحوم محمد كامل الرافعى ، وقد كنت أحسب مولده فى سنة ١٨٨١ أو ١٨٨٢ ، ثم وقعت لى بين أوراقه الخاصة ورقة مكتوبة بخطه يثبت فيها أن تاريخ ميلاده فى يناير سنة ١٨٨٠ فيها أخذت هنا .



علمه وثقافته

لأسرة الرافعي ثقافة يصح أن نسميها (ثقافة تقليدية) ، فلا ينشأ الناشء منهم حتى يتناولوه بألوان من التهذيب تطبعه من لدن نشأته على الطاعة واحترام الكبير وتقديس الدين ، وتجعل منه خلفاء لسلف يسير على نهجه ويتأثر خطاه . والقرآن والدين هما المادة الأولى في هذه المدرسة العريقة التي تسير هذه الأسرة على منهاجها منذ انحدر أولهم من صلب الفاروق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (١) وعلى هذه النشأة نشأ مصطفى صادق ، فاستمع إلى أبيه أول ما استمع تعاليم الدين ، وحفظ شيئاً من القرآن ، ووعى كثيراً من أخبار السلف ، فلم يدخل المدرسة إلا بعد ما جاوز العاشرة بسنة أو اثنتين . فقض سنة في مدرسة دمنهور الابتدائية ، ثم نقل أبوه قاضياً إلى محكمة المنصورة فانتقل معه إلى مدرسة المنصورة الأميرية ، فتال منها الشهادة الابتدائية وسنه يومئذ سبع عشرة سنة أو دون ذلك بقليل ؛ ومن أساتذته في المدرسة الابتدائية شيخنا العلامة الأستاذ مهدي خليل المفتش بوزارة المعارف ، وكان يدرس له العربية ؛ وكان الرافعي رديء الخط لا يكاد يقرأ خطه إلا بعد علاج ومعاناة ، فكان الأستاذ مهدي يسخر منه قائلاً : « يا مصطفى ، لا أحسب أحداً غيري وغير الله يقرأ خطك ! » وقد ظل خط الرافعي رديئاً إلى آخر أيامه .

وهنا أذكر حكاية طريفة تدل على مبلغ وفاء الرافعي وتكشف عن شيء من خلقه : فقد صحبني مرة منذ عامين إلى نادي دار العلوم — وما أكثر ما كان

(١) كان الرافعي يتخذ في بيته امرأة قارئة حافظة ؛ تقرأ كل يوم ما تيسر من القرآن ، وتعلم بناته من القرآن في وقت فراغهن من المدرسة ، وتقيم السنن في تلاوته .

يصحبني إليه إذا هبط القاهرة — وجلس وجلست معه في جمع كبير من المفتشين والمدرسين ورجال التعليم ، وكان المرحوم الأستاذ أبو الفتح الفقى نقيب المعلمين السابق جالساً إلى جانب الأستاذ الراقى يتحدثان ، وأنا بينهما أترجم للراقى حديث محدثه في ورقة ، وأنا كذلك والحديث يتشعب شعبه وينسرب في مساربه ، والجمع حولنا مرهف الأذان يستمع إلى حديث الرجلين ، إذ نهض الراقى واقفاً ، فانتبهت ، فاذا القادم الأستاذ مهدي خليل ، يبدو من طوله وجسامته واكتمال عضله كأنما يطل علينا من نافذة ... وإذا الراقى يطأطأ له وينحنى بهم أن يقبل يده ؛ ثم عاد إلى مجلسه فقال على يقول في همس : « هذا أستاذى مهدي خليل . . . » وكان في صوته رنة هي أقرب إلى صوت الطفل لأبيه حين يمر بهما معلم الغلام فيميل إلى أبيه يسر إليه . . . ومضى الأستاذ مهدي غير عابئ ولا ملتفت ؛ بما فيه من طبيعة المرح وعادة الإغضاء ، وأحسبه لم يمن بالسؤال عن هذا الزائر الذي نهض له ، أو بالنظر إلى وجهه ، على حين ظل ذكره على لسان الراقى طول اليوم

وفي السنة التي نال فيها الراقى الشهادة الابتدائية — وهي كل ما نال من الشهادات الدراسية — أصابه مرض مشف أثبتته في فراشه أشهراً — وأحسبه كان التيفويد — فما نجا منه إلا وقد ترك في أعصابه أثراً كان حبة في صوته ووقراً في أذنيه من بعد .

وأحس الراقى آثار هذا الداء يوقر أذنيه ، فأهمه ذلك هما كبيراً ، ومضى يلتمس العلاج لنفسه في كل مستشفى وعند كل طبيب ، ولكن العلة كانت في أعصابه فما أجدى العلاج عليه شيئاً ، وأخذت الأصوات تتضاءل في مسميه عاماً بعد عام كأنها صادرة من مكان بعيد ، أو كأن متحدثاً يتحدث وهو منطلق يعدو ... حتى فقدت إحدى أذنيه السمع ، ثم تبعتها الأخرى ؛ فما أتم الثلاثين حتى صار اصم إلا يسمع شيئاً مما حواليه ، وانقطع عن دنيا الناس .

وامتد الداء إلى صدره فمقد عقدة في جبال الصوت كادت تذهب بقدرته على

الكلام ، ولكن القدر أشفق عليه أن يفقد السمع والكلام في وقت معاً ، فوقف الداء عند ذلك ، ولكن ظلت في حلقة حبسة تجمل في صوته رنيناً أشبه بصراخ الطفل ، فيه عذوبة الضحكة المحبوسة استحييت أن تكون قهقهة ...

وكانت بوادر هذه العلة التي أصابت أذنيه هي السبب الذي قطعه عن التعليم في المدارس بعد الشهادة الابتدائية ، لينقطع لمدرسته التي أنشأها لنفسه وأعد برامجها بنفسه ، وكان هو فيها المعلم والتلميذ .

وحظ الرافي من الشهادات العلمية مثل حظ أبيه ، فان الشيخ عبد الرازق الرافي على علمه وفضله ومكانته ، وعلى أنه كان رئيساً للمحكمة الشرعية في كثير من الأقاليم — لم تكن معه شهادة (العالمة) حتى جاء إلى طنطا . ولأمر ما نشب خلاف علمي بينه وبين بعض علماء طنطا حفزه وهو شيخ كبير إلى طلب الشهادة ، فتقدم إلى امتحانها ونالها ، لغير غرض يسمى إليه إلا أن يستكمل براهينه في جدال بعض العلماء ...

وكان لأبي الرافي مكتبة حافلة تجمع أشتاتاً من نواذر كتب الفقه والدين والعربية ؛ فأكب عليها إكباب النهم على الطعام الذي يشتهيهِ ؛ فما مضى إلا قليل حتى استوعبها وأحاط بكل ما فيها وراح يطلب المزيد . . . وكان له من علته سبب يباعده بينه وبين الناس فإ يجد لذة ولا راحة في مجالسة أحد . . . وكان ضجيج الحياة بعيداً عن أذنيه ... وكان يحس في نفسه نقصاً في ناحية يجهد جهده ليداربه بمحاولة الكمال في ناحية ... وكان يعجزه أن يسمع فراح يلتمس أسباب القدرة على أن يتحدث ... وكان مشتاقاً إلى السمع ليعرف ماذا في دنيا الناس فمضى يلتمس المعرفة في قراءة أخبار الناس . . . وفاتته لذة السامع حين يسمع فذهب ينشد أسباب العلم والمعرفة ليجد لذة المتحدث حين يتحدث ... وقال لنفسه : إذا كان الناس يعجزهم أن يسمعونني فليسمعوا مني ...

وبذلك اجتمعت للرافي كل أسباب المعرفة والاطلاع وكانت علته خيراً عليه وبركة . وعرف العلم سبيله من نافذة واحدة من نوافذ العقل إلى رأس هذا الفتى

التحليل الضاوى الجسد الذى هياته القدرة بأسبابها والعجز بوسائله ليكون أدب العربية فى غد ... !

كانت مكتبة الرافى فى هذه الحقبة من تاريخه ، هى دنياه التى يعيش فيها : ناسها ناسه ، وجوها جوه ، وأهلها صحابته وخلانه ، وعلماؤها رواه ، وأدباؤها سماره ؛ فأخذ عنها العلم كما كان يأخذ المتقدمون من علماء هذه الأمة عن العلماء والرواة فمألفم ، فنشأ بذلك نشأة السلف . يرى رأيهم ، ويفكر معهم ، ويتحدث بلغتهم ، وتستخفه أفراحهم ، وتترأى له أحلامهم ومنامهم .

وإذ كان قد فقد السمع قبل أن يتم تمامه ويكون أهلاً لفشيان المجالس يتحدث إلى الناس ويستمع إلى حديثهم — فإن حظه من العامية المصرية كان قليلاً ، وكان عليه أن يسألنى أحياناً أو يسأل غيرى من خاصته ، عن كلمة أو عبارة أو مثل مما يسمع من أمثال العامة حين تلجئه الحاجة الأدبية إلى شىء من ذلك ، وكان يمزح معى أحياناً ويقول : « فلتكن أنت لى قاموس العامية ... » .

وإذ كان أبوه وأمه قريبي عهد بمنبتهما فى سورية ، وكان لم يسمع أكثر ما سمع فى طفولته إلا منهما — فإن لهجته فى الحديث ظلت قريبة من السورية إلى آخر أيامه ، على حين تسمع إلى كل أسرته وإخوته وبنيه يتحدثون باللهجة المصرية فما يسم صوت أو كلمة على أن أصلهم سورى ، ولكنه كان بلغته ولهجة حديثه هو وحده النيمة على هذا الأصل ، وكأنه لم يقدم من سورية إلا منذ قريب . ولم تجد على الرافى معرفته الفرنسية^(١) إلا قليلاً أو أقل من القليل ، فنذا انتهى من المدرسة لم يجد فى نفسه إليها نزوعاً قوياً ، فلزمها سنوات يقرأ فيها بعض ما يتفق له من الكتب القليلة المقدر فى العلم والأدب ، ثم هجرها إلى غير لقاء ؛ على أنه كان يأسف أحياناً على هجرها ويعنى نفسه بالعودة إليها فى وقت فراغ ؛ وهيات أن يجد الرافى فراغاً من وقته .

(١) كانت اللغة الأجنبية فى مدارس الحكومة إلى ما بعد الاحتلال بقليل هي الفرنسية ، ولم تدخلها الإنجليزية إلا بعد أن قويت شوكة المحتل حتى نفذت إلى برامج التعليم ، وما تزال ا

هذه ثقافة الرافعي وتلك وسائله إلى المعرفة ، وقد ظل على هذا الدأب في القراءة والاطلاع إلى آخر يوم من عمره ، يقرأ كل يوم ثمانى ساعات متواصلة لا يمل ولا ينشد الراحة لجسده وأعصابه ، كأنه من التعليم في أوله لا يرى أنه وصل منه إلى غاية .

وكان إذا زاره زائر في مكتبه جلس قليلاً يحببه ويستمع لما يقوله ثم لا يلبث أن يتناول كتاباً مما بين يديه ويقول لمحدثه : « تعال تقرأ ... » وتعال تقرأ هذه معناها أن يقرأ الرافعي ويستمع الضيف ، فلا يكف عن القراءة حتى يرى في عيني محدثه معنى ليس منه أن يستمر في القراءة ...

وفي القهوة ، وفي القطار ، وفي الديوان ، لا تجد الرافعي وحده إلا وفي يده كتاب . وكان في أول عهده بالوظيفة كاتباً بمحكمة طنطا ، فكان يسافر من طنطا كل يوم ويمود ، فيأخذ معه في الذهاب وفي الإياب (ملازم) من كتاب أى كتاب ليقرأها في الطريق . وفي القطار بين طنطا وطنطا (وبالعكس) استظهر كتاب نهج البلاغة في خطب الإمام على ، وكان لم يبلغ العشرين بعد ...



في الوظيفة

في أبريل سنة ١٨٩٩ عين الرافي كاتباً بمحكمة طلخا الشرعية ، بمرتب شهري أربعة جنيهات ، وأعانه على الظفر بهذه الوظيفة ما كان لأبيه وأسرته من جاه في المحاكم الشرعية . وما كان الرافي ليجهل جاه أبيه وأسرته في هذه المحاكم ، وما كان منكوراً لديه أن لهم يداً على كل قاض في القضاء الشرعي ؛ فنشأ بذلك نشأة الدلال في وظيفته ، لا يراها إلا ضريبة على الحكومة تؤديها إليه عمل أو لم يعمل ، لسكان أسرته من النفوذ والرأي ، وللكاتبة هو أيضاً ... ألم يكن يرشح نفسه ليكون أديب هذه الأمة ؟ ... هكذا كان يرى نفسه من أول يوم ، وظل كذلك يرى نفسه لآخر يوم ...

وكانت إقامته بطنطا في هذه الحقبة ؛ فمنها مغداه وإليها صراحه في كل يوم ، يتأبط حقيبته فيها غداؤه وفيها كتابه ، وما كان أحد يستطيع أن يلفته إلى ضرورة التكبير إن جاء في الضحى ، أو يسأله الانتظار إذا دنا ميعاد القطار ولم يفرغ من عمله .

ألم يكن يرى الوظيفة إلا شيئاً يعينه على العيش ، ليفرغ لنفسه ويمدها لساكنات له ، فما انقطع عن المطالعة والدرس يوماً واحداً ، وما أكثر ما كان ينقطع عن وظيفته .

وقضى الرافي في طلخا زمناً ما ، ثم نقل إلى محكمة إيتاي البارود الشرعية ، ثم إلى طنطا ؛ وفي طنطا انتقل من المحكمة الشرعية إلى المحكمة الأهلية بمدسنتين ، لأنه رأى المجال في المحاكم الأهلية أوسع وأرحب ، والعمل فيها أيسر جهداً وأكثر أجراً ؛ وظل في محكمة طنطا الأهلية إلى يومه الأخير .

وحياة الرافى فى طنلخا وإيتاى البارود وطنظا لا تنلخو من طرائف ، وتاريخه فى الوظيفة حافل بالصور والشاهد التى كان لها أثرها من بعد فى حياته الأدبية ؛ فى طنلخا عرف الكاطمى شاعر العراق الكبير واتصل به وانعدت بينهما أواصر الود على ما سياتى تفصيله ؛ وفى إيتاى البارود تفتحت زهرة شبابه للحب وتمطشت نفسه إلى لدائه ، وعلى (جسر كفر الزيات) فيما بين إيتاى البارود وطنظا مسته شعلة الحب المقدسة فكشفت عن عينيه الغطاء ليرى ويحس ويشعر ويكون (شاعر الحسن) من بعد ؛ وفى طنظا كان نضجه وتماه وإيناع ثمره . وما أستطيع أن أصف بتفصيل واضح كيف كان يعيش الرافى فى تلك الأيام البعيدة ، ولا كيف كانت صلته بالناس ؛ ولكنى أعرف أن روحا رفاقة كانت تطيف به فى تلك الأيام فتنزعه من وجوده الذى يعيش فيه لتخلق به فى أجواء بعيدة وتكشف له عن آفاق مجهولة لم يسمع بها ولم يعرفها ، فتوحى إليه الشعور بالقلق وألم الحرمان والإحساس بالوحدة ، فلا يجد متنفساً بنفسه به عن نفسه غير الشعر ، وكان ذلك أول أمره فى الأدب ، وإليه كان آخر ما يمتد أمله ، فما كانت له أمنية إلا أن يكون شاعراً ، شاعراً وحسب .

وعرف حبيته الأولى (عصفورة) فتعلم الحب ، ولكنه لم يتعلمه مما يسمع فى مجالس الشبان ، كما يتعلم أبناء هذا الجيل من أكاذيب المنى التى يتداولونها فى مجالسهم فيتعلمون الحب منها فنا له قواعد مرسومة وغاية محتومة ... لكنه استمع إلى وحي الحب أول ما استمع فى همسات روحه ، وخلجات وجدانه ، وخفقات قلبه ، وانفعال أعصابه ؛ إلى ما كان للحب فى نفسه من صورة مشرقة شائقة مما قرأ من أخبار العذريين من شباب العرب ؛ فأحس كأن شيئاً ينقصه فراح يفتقده ، وشمر كأن إنسانه من وراء الغيب تناديه وتهتف باسمه فى خلوة نفسه وجلوة خاطره تقول : ها أنا ذى ... فهام بالحسن ينشده شعره وينشد فيه مثاله الذى يدور عليه ، وطار على وجهه كالفراشة الجامعة تقول لكل زهرة : أنت

التي ... فلا يستمع إلى جواب ، والصوت البعيد دائب يهتف في أذنيه : إننى هنا ،
إننى هنا يا حبيبي فاقصد إلى ...

لم يكن يجب إنسانة بعينها يناديها باسمها ويعرفها بصفتها ، بل كانت محبوبته
شيئاً في نفسه وصورة من صنع أحلامه ، يرى في كل وجه فاتن لمحة من جلالها ،
وفي كل طلعة مشرقة بريقاً من فتنها ، وفي كل نظرة أو ابتسامة معنى من معانى
الحبيبة الناعمة في قلبه وفي أمانيه ... فمضى يتنقل من زهرة إلى زهرة ، عفيف
النظر والشفة واللسان ، حتى انتهى أمره إلى أمر ...

لم ينس الراقى إلى آخر أيامه ما كان من شأنه وشأن قلبه في صدر حياته ،
فكان دائم الحديث عن هذا العهد كلما رقت به سائحة من سوايح الماضى تذكره
ما كان من أمره وما آل إليه أمره .

ليس قصدى الآن أن أحدث عن الحب في تاريخ الراقى ، فان للحب في تاريخه
فصلاً ضافى اللذيول كثير الألوان متعدد الصور له مكانه المفرد في غير هذا الباب .
ولكنى أحدث عن الراقى في بكرة الشباب ، فالى مندوحة عن الإلمام بما كان
يصطرع في نفس الراقى في بكرة الشباب .

عاش الراقى لفنه ولنفسه من أول يوم ، فاعاقته الوظيفة عن أن يكون كما
أراد أن يكون ، على أنه كان إلى اهتمامه بفنه وعنايته بما يكمله ، وعلى أنه كان
لا يرضى أن تتعبده قوانين الوظيفة وتقيده أغلال النظام الحكومى — كان إلى
ذلك دقيقاً في عمله الرسمى دقة تبلغ الغاية . وكان إليه تقدير رسوم القضايا والعقود
ونحوها مما يتصل بعمل المحكمة ؛ فكان كاتباً حاسباً لا يفوته شيء مما يسند إليه ،
حتى آل أمره إلى أن يكون المرجع في هذا العمل لكتاب المحكمة جميعاً يستفتونه
فيما أشكل عليهم من الأمر في تقدير الرسوم ؛ ثم لكثير من كتاب المحاكم
في مختلف البلاد ، ثم لوزارة الحقانية نفسها وهى المرجع الأخير ، تكتب إليه
في زاوية مكتبته من محكمة طنطا تسأله الرأى في حسة أو إشكال أو شيء مما يتصل

بذلك ، فيكتب إليها بالرأى لتبلغه في منشور عام إلى كل المحاكم الأهلية .
وكان عليه كل العبء من هذه الناحية في محكمة طنطا ، وقد طلب أكثر من
مرة أن (يحال إلى العاش) ليتفرغ لفنه ، فما كان يمنعه من الضى في طلبه إلا رجاء
موظفي المحكمة وإلحاحهم عليه أن يبقى لئلا يخلو موضعه .

وكان في صلته بموظفي المحكمة الذين يشركونه في عمله نبيلاً كريم الخلق إلى
حد بعيد ، فكان يتطوع ليحمل عنهم تبعة كل خطأ يقع فيه واحد منهم مهما
كان الخطأ ونتيجته ؛ وقد رأيت مرة في صيف سنة ١٩٣٤ وقد لزمه مفتش من
مفتشى الحفانية ثلاثة أشهر أو أكثر ، يستجوبه عن خطأ في تقدير الرسوم
لأكثر من مائة وعشرين قضية ، بلغ النقص في الرسوم المتحصلة عنها بضعة
وتسعين جنيهاً ؛ والرافى يرد المفتش ويدافعه ويرى له الرأى ويصف العلاج ،
والمفتش دائب على الحضور كل يوم يبحث ويفتش ويستقصى وما ضاقت به أخلاق
الرافى ؛ على حين لم يكن على الرافى في هذه القضايا المائة والعشرين خطأ واحد ،
وما كانت إلا من أخطاء زملائه في المكتب حمل عنهم تبعتها حتى لا يتعرضوا للشر
هو أقدر منهم على الخلاص منه .

7 / وكان من اعتداده بنفسه وحفاظه على كرامته بحث لا يسمح لرئيس مهما علا
منصبه وارتفع مكانه أن يحدد منزلته أو ينال منه أى نيل ؛ وكان يفرط في ذلك
إفراطاً يدعو إلى الشك أحياناً في تواضع الرافى وكرم خلقه وحسن تصرفه .

من ذلك أنه لما كان هذا المفتش يؤدي عمله في المحكمة — وعمله أن
يحقق أخطاء الرافى — كان الرافى يلزم المفتش أحياناً أن يحضر هو نفسه إلى
مكتبه في حجرته الخاصة بالموظفين ليسأله وهو جالس إلى مكتبه والمفتش واقف
أو جالس على كرسيه إلى الطرف الثانى من المكتب . وكنت إحدى هذه المرات
جالساً إلى جانب الرافى — وكان يستدنينى إليه ويشركنى في عمله حين أذهب لزيارته
في الديوان — فلما جاء المفتش هممت بالانصراف ، فشد الرافى ذراعى بمنف وهو
يقول : « اجلس يا أخى ... » ووجه إليه المفتش سؤالاً ، فالتفت الرافى إلى قائلاً :

« من فضلك ، تول عنى جوابه فانه فى حاجة إلى معلم مثلك ! »
لم يكن اعتداد الراقى بنفسه يبلغ به مثل هذا الشذوذ فى كل أحواله ، وإنما كان كذلك مع هذا المقتضى بخاصته ، لأسباب يأتى تفصيلها .
وكان من تقاليد المحكمة كلما نقل إليها قاض أو نائب جديد ، أن يهرع إلى مكتبه موظفو المحكمة يهتئون ويتمنون له ؛ ولكن الراقى كان يتخلف عن وفد الموظفين ، ويظل وحده فى مكتبه ؛ فإذا فرغ القاضى أو النائب من استقبالهم ، مضى إلى مكتب الراقى فى حجرته ، فيقفان لحظة يتبادلان الشكر والتهنئة على هذا الاتفاق الذى هيا لها هذا التعارف ... ثم يذهب إليه الراقى بعد ذلك فى مكتبه ليشكره ويكرر التهنئة .

حتى مدير المديرية — ومحكمة طنطا هى جزء من ديوان المديرية — لم تكن صلته بالراقى صلة المدير الحاكم بموظف صغير ، فكانت بين الراقى وكثير من المديرين صلات من الود والصدقة فوق ما يعرف من الصلات بين الموظفين ؛ ولكن منهم رجلاً واحداً كان أقرب قرابة إلى الراقى من أهله ومن خاصته ومن تلامذته ... ، هو المرحوم (محمد محب باشا) أقدر مدير عرفته مديرية الغربية منذ كانت مديريةية ؛ وكان للصلة بين الراقى ومحب باشا أثر كبير فى أديه سنتحدث عنه فيما بعد .

لم يكن للراقى ميعاد محدود يذهب فيه إلى مكتبه أو يفادره ، فأحياناً كان يذهب فى التاسعة أو فى العاشرة ، أو فيما بين ذلك ، فلا يجلس إلى مكتبه إلا ربما يتم ما أمامه من عمل على الوجه الذى يرضيه ، ثم يخرج فيدور على حاجته كما يجلس فى هذا المتجر وقتاً ما ، وعند هذا الصديق وقتاً آخر ، ثم يعود إلى مكتبه قبيل ميعاد الانصراف لينظر فيما اجتمع عليه من العمل فى غيبته ، وقد لا يعود ... ، وكان هذا منه يفضب زملاءه فى العمل ، فكانوا ينفسون عليه ويأكلون لحمه ؛ ويلفه ما يتحدثون به فيهر كتفيه ويسكت ، ثم لا يمنعه ذلك من بعد أن يأخذ بيدهم عند الأزمة ؛ وكان كتبة المحامين وأصحاب المصالح فى المحكمة يسمونه بذلك عمدة المحكمة ... !

وحدث مرة أن جاء إلى محكمة طنطا رئيس شديد الحول ، فلما صعد إليه موظفو المحكمة للتهنئة ، لم يجد بينهم الرافى ، فلما سأل عنه تحدث الموظفون فى شأنه ما تحدثوا ؛ فاستاء الرئيس وأرسل يدعوهُ إليه ، فلم يجدهُ الرسول فى مكتبه ، فغضب الرئيس وثارت نأثرته ، وأمر باستجوابه عن الاستهانة بنظام المحكمة ومواعيد العمل الرسمى ؛ وجاء الرافى قبله ما كان ، فهز منكبه وجلس إلى مكتبه يمزح ويتحدث على عادته كأن لم يحدث شيء ؛ ورفع الرئيس كتاباً إلى وزارة الحفانية يبلغها أن فى محكمة طنطا كاتباً أطرش ، لا يحسن التفاهم مع أصحاب المصالح على شدة اتصال عمله بالجمهور ، وهو مع ذلك كثير التهاون بنظام المحكمة ومواعيد العمل ولا يخضع للرأى ... وطلب الرئيس فى آخر كتابه إقالة الرافى من الخدمة ! وأرسلت وزارة الحفانية مفتشها لتحقيق هذه الشكوى ، وليرى رأيه فيما طلبته محكمة طنطا ؛ وكان المفتش المندوب لذلك هو الشاعر اللبق الظريف المرحوم حفنى ناصف بك . ولم تكن بين الرافى وحفنى ناصف صلة ما إلى هذا الوقت ، إلا ذلك النسب البعيد الذى يجمع بينهما فى أسرة أبولون ... وإلا ... وإلا كلمة قاسية كان الرافى كتبها بأسلوبه اللاذع عن (شعراء العصر) فى سنة ١٩٠٥ ، ونشرها فى مجلة الثريا وجعل فيها حفنى ناصف ذيل الشعراء ...

وجاء حفنى ناصف إلى الرافى فحيا وجلس ، وبسط أوراقه ليحقق ... وقال للرافى : « قل لهم فى الوزارة : إن كانت وظيفتى هنا للعمل ، فليؤاخذونى بالتقصير والخطأ فيما يستند إلى من عمل ؛ وإن كانت الوظيفة : تمال فى الساعة الثامنة ، واجلس على الكرسى كأنك مشدود إليه بجبل حتى يحين موعد الانصراف ؛ فلا على إن تمردت على هذا التعبد ... قل لهم فى الوزارة : إنكم لا تملكون من الرافى إلا هاتين الإصبعين ساعات من النهار ... ! »

واستمع الأديب الشاعر إلى حجة الأديب الشاعر ، ثم طوى أوراقه وحيا صاحبه ومضى ؛ فلما كان فى خلوته ، كتب تقريره إلى وزارة الحفانية يقول : إن الرافى ليس من طبقة الموظفين الذين تعنيهم الوزارة بهذه القيود ...

إن للرافى حقاً على الأمة أن يعيش فى أمن ودعة وحرية ... إن فيه قناعة ورضى ، وما كان هذا مكانه ولا موضعه لو لم يسكن إليه . دعوه يعيش كما يشتهى أن يعيش ، وأتركوه يعمل ويفتن ويبدع لهذه الأمة فى آدابها ما يشاء أن يبدع ، وإلا فاكفلوا له العيش الرخى فى غير هذا المكان .. !

ويبلغ التقرير وزارة الحفانية ، وانطوت القضية ، وصار تقليداً من تقاليد المحكمة من بعد أن يفتدو الرافى ويروح لاسلطان لأحد عليه ، وله الخيرة فى أمره ؛ ولكنه مع ذلك لم يهمل فى واجبه قط ، ولم ينس يوماً واحداً أنه فى موضعه ذلك بحيث يرتبط به كثير من مصالح الجمهور .

قلت : إن الرافى لم تكن بينه وبين حفنى ناصف صلة ما . ولكن حفنى تولى القضاء بعد ذلك مرة أو مرتين فى محكمة طنطا فتقاربا وتوثقت بينهما أواصر الود ؛ وكانت طنطا فى ذلك الوقت حلبة من حلبات الشعر والأدب ؛ فلا يمضى أسبوع حتى يقدم إليها أديب أو شاعر لزيارة الشاعرين : حفنى والرافى ، فيقوم للشعر سوق ومهرجان . وكان بين الرافى وحفنى من التقارب فى الصفات ما يؤكد هذه الصلة ويوثق هذا الود ؛ فكلاهما شاعر ، وكلاهما من دعاة القديم ، وكلاهما أديب مرصع يجيد الدعابة ويستجيد النكتة البكر ، وإن كانت فكاهة حفنى أظهر وأبعث على الضحك وتكشف عن فراغ القلب ، وفكاهة الرافى أعمق وأدل على قصد العبث والسخرية وامتلاء النفس . ولعل روح الفكاهة فى الرافى كان لها شأنها فيما كان بينه وبين المرحوم حافظ إبراهيم بك من صلة الود والإخاء .

حدثنى الأستاذ الأديب جورج إبراهيم — صديق الرافى وصفيه منذ حدائته — قال : لقد كانت الصلة بين الرافى وحفنى أكثر مما يكون بين الأصدقاء ، وكانا يتزاوران كثيراً ، أو يجتمعان فى قهوة (اللوفر) بميدان الساعة ، وكنت أغشى مجلسهما أحياناً ... فكنت أرى حفنى يتواضع للرافى ويتصاغر فى مجلسه ، على مقدار ما يتشامخ الرافى ويتكبر ويدعى الأستاذية ، حتى ليرى له رأى فى القضايا التى لم يدرسها حفنى بعد ، فلا يحكم فيها إلا بما حكم الرافى !

ظل الراقى فى وظيفته تلك ، موزع الجهد بين أعماله الرسمية وأعماله الأدبية ، وما تقتضيه شئون الأب وشئون رب الدار ، على المورد المحدود والبساط الممدود ... وما زاد مرتب الراقى الشاعر الكاتب الأديب الذائع الصيت فى الشرق والغرب ، الموظف الصغير فى محكمة طنطا الكلية الأهلية ، على بضعة وعشرين جنياً فى الدرجة السادسة ، بعد خدمة ثمان وثلاثين سنة فى وظائف الحكومة ... على أن الراقى كان له مرتب آخر من عمله فى المحكمة ، هو ثمن ما كان يبيع من كتبه للموظفين والمحامين وأصحاب القضايا الذين يقصدون إليه فى مكتبه لعمل رسمى ؛ فمن كان منهم يريد أن يظفر برضا الراقى ليقضى له حاجته ، فليشتر كتاباً من كتبه . وكانت ضريبة فرضها الراقى من طريق الحق الذى يدعيه كل شاعر على الناس !

ليت شعرى ! أكان على الراقى ملام أو معتبة أن يفعل ذلك ... ؟
الله للأدباء فى هذه الأمة التى لا تحفظ الجميل !

